دافيد كبرفيلد لتشارلس ديكنز

بقلم
الدكتور نظمى لوقا
الأستاذ بكلية المعلمين

١ — حياة ديكنز ومؤلفاته

ولد تشارلس جون هفّام ديكنز فى لاندبورت بالقرب من بورتسموث فى سنة ١٨١٢ فكان الثانى من إخوة ثمانية ولدوا لأبويه . وكان أبوه جون هفّام ديكنز موظفاً فى خزانة البحرية الإنجليزية فى بورتسموث . وأحوال الأسرة فى تلك الفترة مضطربة أشد الاضطراب. ولم يكن ذلك ناتجاً فى المقام الأول عن ضآلة أجر أبيه، إذ يقال أنه كان يتقاضى ستة جنيهات فى الأسبوع أو ثلاثمائة جنيه فى السنة . وليس ذلك بالأجر القليل بحساب مستوى المعيشة والقوة الشرائية الكبيرة لنقود ذلك الزمن . بيد أن أباه كان رجلا بوهيمىّ النزعة غريب الأطوار عاجزاً عجزاً تاماً عن تدبير أحواله المالية فى حدود موارده الفعلية . فما أشد حبه للمظهر وجريه وراء أحلام الثراء . وما أشد إتلافه للمال الذى يملكه وللمال الذى لا يملكه على السواء فى التنعم بالبهجة والمرح والشراب .

وذلك كله يغرينا بالنظر فى أسلاف ذلك الطفل الجميل ذى الملامح الدقيقة والوجه الطويل الشاحب والشعر البنّى المتموج الذى يتهدل على جانبى وجهه إلى ما تحت أذنيه، والعينين اللطيفتين الحالمتين المتألقتين واليدين الصغيرتين الأنيقتين والقامة القصيرة التى تقتحمها العين لولا ما فى ذلك الوجه الجميل من سحر أخاذ ونظرة نفاذة وحيوية دافقة .

إنه جده وليم ديكنز سليل أسرة توارثت مهنة الخدمة فى بيوت السادة . وقد بدأ وليم حياته فى رحاب تلك المهنة الموروثة ، وتزوج كما هو منتظر لمثله من فتاة خادم تعمل فى بيوت السادة أيضاً . ويبدو أن الرجل كان أميناً ذكياً نشيطاً فترقى فى مراتب الخدمة حتى صار ناظراً لأملاك سيده ومديراً لقصره . وكان هذا السيد هو جون كرو عضو البرلمان عن دائرة شستر .

وأنجب وليم ديكنز من زوجته الخادمة ولدين هما وليم وجون . وجون هو والد بطلنا أعظم الروائيين الإنجليز تشالس ديكنز . وهو الوالد جون ديكنز نفسه هو النموذج أو المشق الحى الذى نسج ابنه تشارلس على منواله أعظم شخوصه الرائية على الإطلاق « مستر ميكاوبر » ، وهو شخصية لها مكانة بارزة جداً فى روايته مكبرى دافيد كبرفيلد . وقد مات والد جون بُعَيد مولده . فاستبقى السيد رب القصر الأرملة وطفليها فى خدمته مديرة لقصره على مدى خمس

وثلاثين سنة بعد ذلك ثم دبر لها معاشاً عند تقاعدها . وتولى آل كرو الإنفاق على تعليم ولديها وليم وجون ثم دبر لهما موردين للحياة . وكانت الوظائف فى انجلترا فى ذلك الحين لا تنال إلا بالوساطة والسند القوى . ولولا سند آل كرو سادة أبيه لما حصل جون ديكنز على نصيبه ذاك فى إدارة الخزانة بالبحرية الملكية ، وبذلك دخل جون والد مؤلفنا العظيم فى سلك موظفى الدولة وتركزت آماله فى المباعدة المتواصلة بينه وبين ماضى أسلافه المهين . وسرعان ما انعقدت الصداقة بينه وبين زميل له من الموظفين فتزوج من شقيقته اليزابيث بارو .

ويقال فى وصف جون ديكنز أنه كان شديد العناية بفخامة ملبسه ورونق بزته . مشغولا على الدوام بالعبث بحزمة كبيرة من الأختام يضعها فى سلسلة ساعته فهذه الأختام هى عنوان وظيفته ذات المسئولية فى الدول وكأنه بها قد هيمن على خزائن الأرض . أما حبه للخمر المعتقة — وهو شغف اشتهر به السادة السراة — فكان السبب فيما ركبه من ديون باهظة ، تلك الديون التى زج به مرتين فى السجن بسببها . وفى سبيل ذلك الشغف بالخمر الجيدة كان جون ديكنز مستعداً لاقتراض المال من أى إنسان يتمتع بالسذاجة الكافية لإقراضه مخدوعاً فى مظهره الفخم وأبهة ألفاظه وأحاديثه وسخاء يده .

وبعد عامين من ولادة تشارلس نقل جون إلى لندن . وبعد ثلاثة أعوام أخرى نقل إلى تشاتم حيث دخل الغلام المدرسة وتعلم القراءة . وكانت لدى أبيه مجموعة صغيرة من الكتب ، معظمها روايات من بينها نخبة ممتازة من قبيل « توم جونز » و « قس واكفيلد » و « چيل بلاس » و « دون كيشوت » ، فراح تشارلس الصغير يقرؤها ويعيد قراءتها . وتدل الروايات التى ألفها على مدى تأثرة العظيم بهذه الأعمال الأدبية التى تركت طابعها فى مخيلته الغضة .

وفى سنة ١٨٢٢ — وقد صار تشارلس فى عامه الحادى عشر — نقل جون ديكنز مرة أخرى إلى لندن ، ولكن تشارلس بقى فى تشاتم ليتم عامه الدراسى ولم يلحق بأسرته فى لندن إلا بعد مضى بضعة أشهر ، فألفاهم مقيمين فى ضاحية على أرباض مدينة لندن تسمى كامدن تاون فى بيت وصفه تشارلس عندما ألف روايته الكبرى دافيد كبرفيلد بأنه بيت آل ميكاوبر . وألفى شئون أبيه المالية قد وصلت إلى درجة بالغة من السوء . وكان أكبر ما حز فى نفسه أنه لم يعد ثمت سبيل لعودته إلى مقاعد الدرس . وزاد من أساه أنه ارتد إلى مهنة جدته لأبيه فكلف بأعمال خادمات البيوت ، ولكن فى بيت أسرته الخاص وبغير أجر : فهو موكل برعاية شرذمة من إخوته الصغار بالإضافة إلى تنظيف الأحذية وتلميعها وتنظيف الثياب والمساعدة فى الكنس وأعمال المطبخ . وكانت أخف مهامه قضاء حاجات البيت القليلة من السوق . ولكن الفتى تشارلس كان يتسلل ويروغ بين الحين والحين لجوب شوارع كامدن تاون الحقيرة وما يحيط بها من أحياء فقيرة تتخللها الحقول والحفر والمصارف والطلول والخرائب . وامتد تجواله فيما بعد إلى حى سوهو المشهور بسكانه من شذاذ الآفاق والمنبوذين من المجتمع والخارجين على القانون .

واشتدت ضائقة الأسرة فكان تشارلس هو الذى يحمل إلى حوانيت المرابين كل قطعة من متاع البيت تصلح للرهن ولو مقابل مبالغ ضئيلة . ولم يثقل ذلك كله على نفس الفتى تشارلس إلا عندما بيعت مجموعة الكتب الثمينة — وهى أعز شىء فى الدنيا عليه — لتاجر كتب قديمة . وأطبقت المصائب عليه بعد بيع تلك الكتب فألحق بعمل حقير فى مصنع لتعبئة طلاء الأحذية فى زجاجات مقابل ستة شلنات فى الأسبوع . وكم آلمه أن يجد والديه مسرورين غاية السرور بمغادرته وهو فى الثانية عشرة لكنف الأسرة كى يعيش نهباً

للإحساس بالضياع والنبذ فى ذلك المصنع الحقير . وبعد قليل سيق جون ديكنز إلى السجن بسبب تراكم ديونه وإعساره وكانت سجون الديون يومئذ تسمح لزوجة المحبوس وأطفاله بالإقامة معه داخل أسوار السجن . ولعل ذلك التدبير كان من قبيل الرحمة بالنساء والأطفال وقد فقدوا ملاذهم بسجن عائلهم . والإقامة فى سجون المعسرين يومئذ شديدة الحقارة . وليس ذلك عجيباً وهى مكتظة بأمثال جون ديكنز والجيش الجرار من أطفاله . وفيما عدا ذلك لم تكن المعاملة بالغة السوء . وقد أتت مسز ديكنز معها بخادمة صغيرة لرعاية الأطفال ومساعدتها أثناء النهار حتى إذا حل المساء ذهبت للمبيت فى بيت أهلها . وبسبب مايسود دوائر الدولة الانجليزية يومئذ من المحسوبية لم يقطع مرتب جون من خزانة البحرية الملكية وهو فى السجن . واعتبره رؤساؤه بطريق التواطؤ والتغافل لم ينقطع عن العمل .

وفى مدة ذلك الحبس نعم تشارلس الصغير بحرية لاحدود لها فى قضاء أمسياته على ماهوى متجولاً فى شوارع لندن وأزقتها . ولاسيما شواطىء التامز التى يكثر فيها البحارة جوابو الآفاق والخلاسيون والأجانب وأصحاب البداوات ورواة الطرائف والتهاويل . وسيطر هذا الجو السحرى على عقل تشارلس الغض بصورة لم تمح إلى آخر حياته ، بحيث ظلت لندن فى مؤلفاته مسرحاً للخيال والأحلام لا نظير له .

وفى أبريل سنة ١٨٢٤ ماتت جدته لأبيه مسز وليم ديكنز تاركة مدخراتها لولديها وليم وجون فقام وليم بأداء ديون أخيه السجين فأطلق سراحه واستقرت الأسرة مرة أخرى فى كامدن تاون واستأنف جون منصبه فى البحرية . وظل تشارلس يقوم بعمله الكريه فى معمل دهان الأحذية إلى أن فصل منه لسبب ما فعاد وهو فى منتهى السعادة إلى كنف الأسرة . فاذا هو يفاجأ بحزن أمه لضياع عمل يغل عليهم ستة شلنات فى الأسبوع ولم يغفر لها ذلك الحزن ماعاش . وكتب فيما بعد يقول :

— لم أنس بعد ذلك قط ، ولن أنسى ماعشت ، ولن يتسنى لى أن أنسى مهما اجتهدت ذلك الموقف من جانب أمى !

ولكن أباه جون لم يكن عمليا فى تفكيره كزوجته بل كان من أصحاب الخيال الخصب ومطامع العظمة — وهو جانب ورثه عنه ابنه العظيم تشارلس — فأصر الرجل على عودة ابنه الجميل الذكى إلى المدرسة وظل تشارلس منتظما فى دراسته إلى سن الخامسة عشرة حيث ألحق بالعمل ساعيا فى مكتب أحد المحامين. وبعد بضعة أسابيع حصل له أبوه على عمل مساعد كاتب لدى محام آخر بأجر قدره خمسة عشر شلنا فى الأسبوع . وفى أوقات فراغه تعلم الاختزال . وبعد سنة ونصف بلغ مستوى من البراعة فى هذا الفن النادر وقتئذ بحيث فتحت له أبواب العمل فى الصحـــافة مندوباً برلمانيا وهو دون العشرين ، واشتهر بين زملائه بأنه « أسرع المندوبين البرلمانيين وأدقهم فى نقل الخطب والمناقشات التى تحتدم فى مجلس العموم » .

وفى تلك الأثناء أغرم بفتاة غزلة تدعى ماريا كريمة مدير أحد البنوك . ويقال أنها شجعته كثيراً على حبها وكانت بينهما خطبة سرية . ولكن الفتاة فيما يبدو لم تكن تأخذ ذلك كله مأخذ الجد لأن تشارلس الشاب كان لا يملك من حطام الدنيا شيئا . وبعد عامين من الأحلام والخيالات العاطفية وصلت هذه العلاقة إلى ختامها المقدور واسترد كل منهما هداياه ورسائله من الآخر . وكانت الصدمة شديدة جدا على تشارلس فخيل إليه أن قلبه تحطم . وهذه الفتاة « ماريا بيدنل » هى التى صورها فى روايته دافيد كبرفيلد باسم دورا وقال فيما بعد أن معظم الناس لا يمكن أن يتصوروا مبلغ هيامه الشديد بها . ولم يلتقيا إلا بعد ذلك بسنوات

طوال وقد صار ديكنز من أعلام زمانه المشهورين فى العالم أجمع ، أما ماريا فكانت قد غدت زوجة بدينة غبية عاطلة من كل سحر . فاستخدمها ديكنز عندئذ نموذجاً لشخصية فلورا فى روايته « الصغيرة دوريت»

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بلغ دخله نيفا وخمسة جنيهات فى الأسبوع . وشرع فى تأثيث مسكن له بالقرب من مقر صحيفته التى يعمل بها وإذا والده يُزج به فى السجن بسبب إعساره مرة أخرى ، ووقع على تشارلس عبء رفع نفقات معيشة أبيه فى السجن واكترى لأسرته الكبيرة مسكناً أرخص . وتخير للإقامة معه فى مسكنه المستقل أخاه فردريك . ومن ذلك اليوم قر فى ذهن أسرته أنه المكلف باحالتها من جميع الوجوه . وهو قدر لازمه بعد زواجه لأن أسرة زوجته أيضاً صارت تنظر إليه هذه النظرة .

وبعد عام تقريباً من العمل فى الصحافة مراسلا برلمانيا شرع تشارلس يكتب سلسلة من الصور القلمية للحياة فى لندن نشرتها له بعض المجلات الأدبية بدون مقابل ، إلا أنها استرعت الأنظار . وكانت الموجة السائدة يومئذ نشر روايات حافلة بالطرائف والنوادر تدور حول شخصيات فكاهية وتنشر منجمة على أجزاء شهرية كل جزء منها يباع بشلن واحد ، وفيها رسوم مضحكة يكتب التعليق عليها كتّاب بارزون . وهذا هو الأصل القديم للمجلات والمسلسلات الفكاهية المنتشرة فى يومنا هذا وكانت تلقى رواجاً كبيراً فى ذلك الزمن يعادل شعبية هذه المجلات الفكاهية فى زمننا ودعى تشارلس ديكنز لكتابة النصوص المقروءة فى مسلسلة فكاهية رياضية مقابل أربعة عشر جنيها فى الشهر ونسبة معينة من إيراد البيع . ولم يكن تشارلس يدرى شيئاً عن أحوال الرياضة وهى أول مرة يكتب فيها بتكليف ولكن العرض كان مغريا جداً للصحفى الفقير الناشئ وهكذا بدأت روايته التى دفعت به إلى أضواء الشهرة ونعنى بها « أوراق مستر بيكويك » . وكان الفضل فى جنون الناس بها لشخصية « سام ويلر » التى ابتدعها ديكنز . وما إن ظهرت القصة كاملة فى كتاب وهو فى الخامسة والعشرين من عمره حتى كانت شهرة المؤلف قد طبقت الآفاق . وكان صعوده فى مراقى النجاح أشبه بالصاروخ على حد تعبير إحدى المجلات الأدبية يومئذ . ولكن النقاد كانوا متحفظين جدا ويقفون منه موقفاً يدل على البخس والعجز عن تقدير العبقرية وهذا هو شأن معظم العباقرة مع معاصريهم من النقاد المحترفين .

وفى سنة ١٨٣٦ تزوج تشارلس ديكنز من «كيت هوجارث » كبرى بنات زميله فى الصحيفة التى يعمل بها حينئذ واسمه « جورج هوجارث» ، وجورج هذا أب لستة أولاد وثمانى بنات . وكبراهن كيت هى الوحيدة التى بلغت سن الزواج .

وبعد شهر العسل القصير استقر تشارلس مع زوجته كيت فى مسكن خاص ودعوا شقيقتها الحسناء مارى التى بلغت السادسة عشرة للإقامة معهما . وشغلت كيت بإنجاب الأطفال تباعاً فى حين شغل قلب تشارلس بمارى اللطيفة الذكية الألمعية الروح البارعة فى التقليد والحديث والمحبة للغناء والفكاهة والمرح . وكانت تشاركه نزهاته الطويلة سيراً على الأقدام حيث يحدثها عن أبطال قصصه التى أخذ يكتبها بنشاط وقد اشتد عليها طلب الناشرين .

وصدرت قصة أوليفر تويست » فى سنة ١٨٣٨ فكانت بداية مرحلته الثانية بعد أن ختمت بأوراق بيكويك مرحلته الأولى .

وموضوع أوليفر تويست انتصار الخير على الشر رغم الظروف المعاكسة والتنديد بالظلم الاجتماعى وأحوال الملاجئ فى بريطانيا .

وفى سنة ١٨٣٩ – أى فى العام التالى مباشرة – ظهرت قصـــة « نيكولاس نيكابن » وموضوعها الإصلاح الاجتماعى مرة أخرى وما يلقاه الأطفال من سوء المعاملة فى مدارس الريف الزراعية .

وفى سنة ١٨٤١ ظهرت له ثلاث قصص هى « ســاعة السيد همفرى » و « حانوت الطرائف » و « برنابى رادج » وكلها حافلة بالشخوص الحية ولاسيما شخصية الصغيرة « نل » فى قصة حانوت الطرائف وقد لاقت كلها رواجاً كبيراً ، وقيل عن برنابى رادج أنها رواية تاريخية وإن كانت جميع شخوصها خيالية فيما عدا « لورد جوردون » . وبهذه القصص ختمت مرحلته الثانية لتبدأ مرحلته الثالثة المعروفة بمرحلة النضج .

وقبل ظهور شئ من قصص هذه المرحلة رحل تشارلس مع زوجته إلى الولايات المتحدة وكندا للقيام بجولة كبرى لم تسفر عن تأصل المودة بينـــه وبين الأمريكان الذين كانوا ينشرون كتبه على نطاق واسع من غير أن يفكروا فى أداء شئ من الحقوق المالية إلى المؤلف . وبعد عودته نشر قصة « مارتن تشازلويت » سنة ١٨٤٣ وهى قصة جريمة قتل تفيض بالسخرية والتعقد وتفصح عما تركته أمريكا فى نفسه من استهانة وزراية .

وفى سنة ١٨٤٨ ظهرت قصة « دومبى وولده » وهى رواية مؤثرة بما صوره فيها من شخوص رقيقة أهمها بول الصغير وظروف وفاته .

وفى سنة ١٨٥٠ تمت روايته الكبرى « دافيد كبرفيلد » مروية على لسان بطلها دافيد الذى يروى قصة حياته . وهى فى الواقع قصة طفولة تشارلس ديكنز نفسه وكفاحه ونجاحه فى إطار ذهبى رائع الألوان والظلال .

وفى سنة ١٨٥٣ أتم كتاباً عظيما آخر هو « البيت الكئيب » . ثم فى سنة ١٨٥٤ ظهرت روايته التى تدور حول مشكلة التفكير الثورى فى المجتمع الانجليزى فى عصر نشأة الصناعة الكبرى واحتدام المشكلات بين أصحاب المعامل ونقابات العمال . وتلك هى قصته العظيمة « أوقات عصيبة » .

وفى سنة ١٨٥٧ أتم روايته الكبيرة « الصغيرة دوريت » وهى ذات تشعب إلا أنها رائعة فى تصوير سجون الديون والإعسار وما يسود دواوين الحكومة من تراخ وفوضى وقصر نظر .

وفى سنة ١٨٥٩ ظهرت « قصة مدينتين » وهى رواية تاريخية عظيمة لم تزل من أهم النصوص الأدبية التى تقرر على المدارس الثانوية والعليا ، ولكنها لا تمثل أدب ديكنز تمثيلا نموذجياً وهى ختام مرحلة نضجه .

أما روايات المرحلة الأخيرة من إنتاجه الأدبى فأولها « مطامع جسام » التى ظهرت سنة ١٨٦١ وهى من أعظم رواياته من الوجهة الفنية ، وقد طامن فيها من الجو الرومانسى والمبالغات الميلودرامية . وفى سنة ١٨٦٥ أصدر بعد تمامها قصة «صديقنا المشترك» وهى رواية كثيرة التعقيد .

وفى سنة ١٨٧٠ صدرت « لغز ادوين درود » وهى رواية بوليسية لم تتم وقد بذلت جهود كثيرة لوضع ختام يحل غموضها .

ولديكنز كتابات أخرى غير القصص منها كتب الرحلات وكتب للأطفال وتاريخ انجلترا للأطفال وكتب دينية للأطفال وضعها لأطفاله شخصياً . كما قام فى أواخر حياته بجولات يتلو فيها صفحات من قصصه وكان بارعاً فى الإلقاء شجىّ الصوت والتعبير فتفيض بالدمع عيون سامعيه ويجن جنونهم حماسة له . وأصدر عدداً من المجلات الأدبية والصحف . وكان يؤلف أكثر من رواية واحدة فى وقت واحد .

ومن أسف أن حياته الزوجية اضطربت ففارق زوجته نهائياً فى سنة ١٨٥٨ وعاشر ممثلة جسناء صغيرة السن هى « رالين ترنان » أنجب منها ابناً وأسكنها فى بيت بناحية بكهام قرب قصره الريفى . وكانت وفاته قبل إتمام آخر أعماله الأدبية « لغز إدرين درود » الذى أشرنا إليه آنفاً فى ٩ يونيه سنة ١٨٧٠ متأثراً بالإرهاق الشديد فى العمل والطواف والمحاضرة والتمثيـــل فى الحفلات الخيرية ... والحرب .

وقد دفنت انجلترا أعظم روائييها فى وستمنستر مع العظماء . وأعلن الحداد عليه فى العالم أجمع . لأنه كان معبود الجماهير فى كل مكان .

٢ — دافيد كبرفيلد

إن ما خضنا فيه من سيرة حياة تشارلس ديكنز وثيق الصلة جداً بالحديث عن روايته دافيد كبرفيلد ، فهذه الرواية تعتبر فى جانب كبير منها قائمة على سيرته الذاتية وإن كان ديكنز بالطبع لم يرم إلى أن يكون ما كتبه سيرة ذاتية فى المقام الأول ، وإنما كان مراده أن يكتب رواية ، بيد أنه استمد الكثير من مادة هذه الرواية من حياته الخاصة وفى الحدود التى تخدم غرضه من حيث هو روائى . أما ما لا يوافق من حياته الخاصة ذلك الغرض فهو يتخلى عنه ليصوغ ما يوافقه بخياله الخصب .

وقد ذكرنا آنفاً أن مستر ميكادبر هو الصورة الروائية لأبيه جون ديكنز . وأن دورا هى الصورة الروائية لحبيبته الأولى ماريا بيدنل . والرواية مكتوبة على لسان بطلها دافيد كبرفيلد نفسه ، وهى طريقة كثيراً ما لجأ اليها الروائيون ، ولها مزاياها وعيوبها . وأول مزية لها بلا شك أنها تجبر المؤلف على إبقاء تسلسل الأحداث متصلا ، لأن الراوية لا يستطيع أن يروى لك إلا ما شهده بعينه أو سمعه بأذنيه أو فعله بنفسه . وقد أجدت هذه الطريقة على ديكنز كثيراً لأن أفكار رواياته كانت تجنح إلى التعقد والاضطراب والاستطرادات الجانبية التى تحفل بشخوص وحوادث لا أهمية لها فى السياق الأساسى للقصة .

ومزية ثانية لهذه الطريقة أنها تضفى على السرد مخايل الواقع وتحشد إلى جانب الراوى عواطف القراء وتركز عليه اهتمامهم من بداية الرواية إلى ختامها .

أما نقائص هذه الطريقة فأولها ما ينتاب كل متحدث عن نفسه من الحرج ، فلا يستطيع بغـــير التعرض لتهمة السلاطة والرقاعة أن ينعت نفسه من حيث هو بطل قصته بصفات الجمال الجسدى أو الذكاء أو اللباقة أو سحر الشخصية . وإذا ما أبدى نفسه فى صورة المقصر الفاشل احتقره القراء لغبائه .

وثمت عيب فى هذه الطريقة لم يتسن للمؤلفين تلافيه وإن كانوا من طبقة تشارلس ديكنز ، وهو أن الراوية البطل لابد أن يبدو باهت المعالم بالقياس إلى الشخصيات الأخرى التى يروى وقائعه معها . والسبب البديهى لذلك النقص أن الراوية يرى نفسه من الداخل فلا يصور ملامحه الخارجية بل يصور ما يراه بعينه . وما يراه ليس صورة نفسه بل صورة الآخرين . فهو إذ يتحدث عن نفسه يذكر مخاوفه ووساوسه ، وإذ يتحدث عن سواه يصفه بلا تحرج . وحين يكون الوصاف رجلا من طراز ديكنز لا يشق له غبار فى براعة التصوير والتلاوين والفطنة إلى المفارقة والفكاهة ومواطن الطرافة والغرابة تأتى رسوم تلك الشخصيات الأخرى دافقة الحيوية تزرى أيما إزراء بصورة المؤلف فى عين القراء .

بيد أن هذا كله لا يقدح فى الجهد الجبار الذى بذله ديكنز لتجلية صورة دافيد كبرفيلد وتحمس القراء له والانحياز إلى جانبه بعواطفهم . وقد انتهج لذلك خطة لعلها خير ما يتسنى له وسط تلك المزالق

والمحرجات فجعل منه فتى طاهر القلب إلى حد السذاجة ، يتعرض للسلب والنهب والغش والغفلة من كل من يلقاه فى طريقه . ولكن ذلك لا يكاد يتفق مع البداية التى بدأها دافيد . ففى نحو العاشرة من عمره اشتغل فى مصنع حقير وخالط العمال وذوى الفظاظة والحيلة والاحتيال — وذلك شبيه تمام الشبه بما حدث لديكنز نفسه فى طفولته — فمن العجيب بعد ذلك أن يظل دافيد على هذا القسط من البراءة والغفلة وقلة الحيلة . وأن تتكرر هذه المآزق بحذافيرها تقريباً من غير أن يتعلم من دروسها القاسية شيئاً يقيه أفاعيل أهل السوء . حتى إذا التقى بدورا بدا عاشقاً خائباً لا يفطن إلى حديث العيون ولا ما تحفل به العبارات من ثوريات وفنون . فيظل إنساناً عدم الخبرة عاجزاً عاطلا من الكفاءة فى أمور العمل وأمور العواطف على السواء . وأعجب من هذا وذاك أن ينتهى هذا الإنسان إلى التبرير والتفوق فى تأليف الروايات :

ولكن شخصية دافيد ليست كل ما فى رواية دافيد . فما أبرع شخصية ميكاوبر وأورياهيب وأمه وآل ترادل وتبسى تروتوود ودورا وأجنس وغيرهم وغيرهم ممن يحفلون بالحياة القوية الصـــادقة حتى ليحسبهم القارىء أحياء فى دنيا الواقع تعرفهم أوثق المعرفة أكثر مما يعرف أصحابه وخلطاءه الأقربين . وأعظم هؤلاء بلا شك من حيث القيمة الفنية شخصية مستر ميكاوبر الذى استعار له ديكنز شخصيه أبيه جون ديكنز محب الحياة المتلاف الأنانى أخى الكاس والطاس الذى يطارده الدائنون .

وقبل أن نقدم خلاصة الرواية نقف قليلا عند دور المصادفة فيها فنجد ديكنز لا يطرف له جفن وهو يستخدم المصادفة تلو المصادفة كلما وجد ذلك مجدياً فى إبراز معالم روايته وتهيئة الجو لألوان من اللقاء الدرامى المثير بين أبطالها . وهى خطة تتعارض مع الاتجاه الحديث فى القصص ، ولكننا لو خيرنا بين مصادفات دافيد كبرفيلد ما ترتب عليها من المشاهد الرائعة البارعة وبين إلغاء تلك المصادفات بكل ما ترتب عليها من تلك المشاهد ، لما ترددنا طرفة عين فى التمسك بتلك المصادفات الخصبة وما أجدته على الأدب من كسب عظيم .

والآن نسوق خلاصة وجيزة لأعظم روايات ديكنز وأحبها إلى نفسه وأكثرها تمثيلا لقصة حياته ، مروية على لسان دافيد نفسه .

*

كانت ولادتى فى يوم جمعة عند منتصف الليل . وقد ولدت يتيما لأن أبى مات وأنا فى بطن أمى قبل ذلك بستة أشهر . وكانت عمة أبى الآنسة بتسى تروتوود قد جاءت قبل مولدى بساعات وتعهدت لأمى (التى كانت تخافها كثيراً) برعاية المولود إذا جاء أنثى فلما جئت ذكراً غضبت وقذفت الطبيب المولد بقلنسوتها وانصرفت لا تلوى على شيء . وأول من أذكره من شخصيات طفولتى هى أمى بشعرها الجميل وشبابها الناضر ، وكذلك « بيجوتى » مربيتى العجوز ذات الخدين والذراعين الشديدة الحمرة والصلابة حتى أننى كنت أعجب لماذا لا تنقرها العصافير كما تنقر ثمار التفاح !

وأذكر كذلك بعد بضع سنوات رجلا ذا شعر أسود مليح وشارب أسود كان يعود معنا من الكنيسة إلى البيت فى أيام الأحد ولم أكن أحب صوته العميق ولا تعمده أن يلمس أمى حين يلمسنى . وبعد ذلك أخذتنى بيجوتى لقضاء أسبوعين عند شقيق لها فى بلدة يرموث ولما عدنا ألفيت ذلك الرجل قد تزوج أمى . وكان اسمه مستر مردستون . فصافحته بعد تردد ثم قبلت أمى وأنا لا أستطيع النظر إليها ولا إليه ثم تسللت صاعداً إلى حجرتى وظللت أبكى إلى أن نمت . ولو أنه قال لى كلمة تشجيع واحدة أو كلمة ترحيب

واحدة بعودتى إلى البيت لأنست إليه واحترمته بقلبى لا بالمظهر فحسب وأنا أنطوى له على الكره .

وفى اليوم التالى حضرت أخته الآنسة مردستون وهى تشبهه فى السحنة والصوت ، كما تشبهه فى الحزم الصارم . وحال وجودهما دون نجاح دروسى على يد أمى لأن نظراتهما الثاقبة كان لها من التأثير علىّ مثل تأثير نظرات ثعبانين على فرخ طير صغير مهيض الجناح . وذات صباح زاد تعثرى فى دروسى على المألوف فإذا مستر مردستون يمسك بى ويلوى عنقى تحت إبطه متأهباً لضربى على عجيزتى بعصاه ، وإذ أنا بعد أول ضربة أعض يده فأثاره ذلك وانهال علىّ كمن يريد أن يقتلنى ثم حبسنى فى حجرتى وحرّم على أمى مقابلتى وقامت على حراستى شقيقتـــه مدة خمسة أيام أرسلت بعدها إلى مدرسة داخلية فى بلاكهيث ، وقابلت أمى قبل سفرى فإذا هى مقتنعة بما أدخله زوجها فى رأسها من أننى فتى شرير . وكان أسفها لغضب زوجها علىّ أشد من أسفها لفراقى !

وفى الفصل الدرامى الثانى جاءنى نعى أمى فذهبت لحضور جنازتها ولم أعد بعدها إلى تلك المدرسة . وتخلى عنى مستر مردستون وشقيقته . وعولت مربيتى بيجوتى على الرحيل للإقامة مع شقيقتها فى يرموث ثم إذا هى تعدل عن ذلك وتتزوج الحمال العجوز باركسى ودعتنى للإقامة معها على أن ترعانى كسابق العهد . وطالت وحدتى بضعة أسابيع إلى أن قال لى زوج أمى أننى يجب أن أعمل فى مصنع له كى أكسب قوتى . وكان ذلك المصنع فى لندن . وكانت سنى عندئذ عشر سنين . وقد عهد إلى بغسل القوارير مع ثلة من الغلمان والرجال فى الفرع الخاص بتعبئة الخمور . وكان أكبر زملائى الغلمان ميكووكر . وثمت زميل آخر شاحب الوجه يلقب باسم ميلى بطاطس بسبب شحوبه . ويعجز اللسان عن وصف تعاستى بالهبوط إلى ذلك المستوى بعد طفولتى المرفهة ودراستى فى المدرسة الراقية . وكثيراً ما كنت أمزج الماء الذى أغسل به القنانى بدموعى وإذا خلوت لنفسى انتحبت حتى يكاد صدرى ينشق مما به من اللواعج المحتدمة .

كان أجرى ستة شلنات فى الأسبوع زيدت بعد ذلك إلى سبعة يجب أن أكفى بها حاجاتى جميعاً . وكانت سنى الصغيرة لا تسمح لى برعاية شئونى والقيام على سائر أحوالى . وكانت الحلوى الرخيصة تسيل لعـــابى فأشترى منها بالبنسات التى كان ينبغى أن أنفقها فى عشائى ولا أبيت على الطوى . وكان العمل يستغرق سحابة النهار ورثت ملابسى وبليت نعلى وأنا أذرع الشوارع فى المساء متسكعاً على غير هدى : ولولا رحمة الله لنشأت لصاً أو أفاقاً . أما مسكنى فكان زوج أمى قد رتبه لى لدى أحد العاملين معه وهو مستر ميكاوبر : ومستر ميكاوبر هذا رجل فى أواسط العمر يميل إلى البدانة أصلع الرأس كبير الملامح يرتدى ثياباً بنية اللون زرية ولكن بنيقة قميصه من نوع فاخر يمسك دائماً بعصا ويتدلى من سترته منظـــار يستخدمه للزينة فحسب لأنه قلما يستخدمه للنظر ، وإذا فكر فى استخدامه للنظر لم يستطع أن يرى من خلاله شيئاً لأنه لا يوافق بصره !

وقد ألفيت بيت مستر ميكاوبر زريا كملبسه ولكنه حافل بالمظاهر المموهة كملبسه أيضاً ! وقدمنى الرجل لزوجته وهى سيدة نحيلة ذابلة تجاوزت سن الشباب أعربت لى عن استيائها لأن سوء ظروف زوجها المالية فى الوقت الحاضر اضطرتها لتأجير هذه الغرفة لشخص غريب مما يفسد جو الخصوصية فى الأسرة . ولكن الديون المتراكمـــة على مستر ميكاوبر لاتكاد تدع له مخرجا من ضائقته .

وتحت تأثير وحدتى وصغر سنى وافتقارى إلى الحنان سرعان ما ارتبطت بتلك الأسرة . وعندما زج الدائنون

بمستر ميكاوبر فى السجن ولحقت به زوجته إلى هناك اكتريت حجرة صغيرة قرب السجن لتتسنى لى زيارتهما باستمرار . وعندما أطلق سراح مستر ميكاوبر رحل مع زوجته إلى بليموث حيث يتمتع ذووها بشيء من النفوذ فلم يعد لى من أركن إليه فى لندن فقررت الهرب منها مخترقاً الريف إلى حيث تقيم الآنسة بتسى عمة أبى بالقرب من دوفر . وإن كانت مربيتى بيجوتى لم تحدد لى العنوان بالضبط . وبعد أن ودعت آل ميكاوبر فى محطة عربات السفر بدأت رحلتى المجهولة العواقب سيراً على الأقدام .

وفى اليوم السادس من ذلك الفرار وصل بى المطاف إلى مدينة دوفر . وكنت قد قطعت المسافة كلها سيراً على قدمىّ ، وفى الليل كنت أنام فى العراء . وكان الوقت لحسن حظى صيفاً فلم يصبنى أذى من بيع سترتى وصدارى لأبتاع طعاماً آكله . أما حذائى فصار فى حالة سيئة للغاية . وفقدت قبعتى شكلها لأنى كنت أنام بها . وتلطخ قميصى وسروالى بالندى والعرق والتراب والأعشاب التى كنت أنام عليها فما أشبه ثيابى بفزاعة الطيور فى حديقة عمتى ، ولاسيما أن شعرى لم يعرف مشطاً ولا فرشاة منذ غادرت لندن . وعلى هذه الصورة المفزعة توجهت كى أقدم نفسى إلى عمتى العتيدة .

وفيما أنا واقف أمام باب صديقتها رأيت سيدة تخرج من البيت وقد عقدت فوق قلنسوتها منديلا ولبست قفازاً سميكاً وفى يدها سكين هائل . فأيقنت أنها الآنسة بتسى . عرفت ذلك من مشيتها لأن أمى كثيراً ما كانت تقلد تلك المشية . وما أن رأتنى حتى صاحت تزجرنى كى أبتعد عن بابها . وبعد قليل رأيتها تعمل فى ركن من الحديقة فتسللت خلسة ووقفت بجوارها وقلت لها إننى ابن أخيها ، فأوقعتها المفاجأة على الأرض ورحت أروى لها موجز حياتى وما منيت به من شدائد وما قاسيته فى رحلتى هذه إليها ، ثم عزت علىّ نفسى فانفجرت باكيا ، فجذبتنى إلى داخل البيت وراحت تعالج ما رويته لها من جوعى وعطشى ببضع قوارير جعلت تصب محتوياتها فى حلقى حينما اتفق لأنى وجدت لبعضها طعم الينسون ولبعضها الآخر طعم الصلصة ولبعضها الثالث طعم التوابل وما تضمخ به السلطة ، ثم أمرت بتجهيز حمام ساخن لى . وعاونها فى العناية بى سيد أشيب الشعر لطيف المنظر اسمه مستر ديك أقرضنى بعض ملابسه عند الفراغ من الحمام ، ثم لفتنى عمتى بثلاثة شيلان واستغرقت فى نوم عميق بعد أن بدأ فى حياتى عهد جديد تبنتنى فيه الآنسة بتسى .

وكتبت عمتى إلى مستر مردستون فجاء بعد بضعة أيام ومعه شقيقته فصبت عليهما جام غضبها أما أنا فرفضت العودة معهما وناشدت عمتى أن تستبقينى إلى الأبد . وأيّد مستر ديك موقفى وطالبها بأن تتخذنى ولداً لها وتعنى بتربيتى ومظهرى . فطردت عمتى زوج أمى وأخته وقررت تعيين مستر ديك شريكاً لها فى الوصاية علىّ وغيرت اسمى من دافيد كبر فيلد إلى تروتورد كبر فيلد . وهكذا صار كل شيء فى حياتى هذه جديداً حتى اسمى !

وأرسلتنى عمتى إلى مدرسة فى كنتربرى . ولم أجد لى مكاناً بقسمها الداخلى فأقمت عند محاميها العجوز مستر ديكفيلد . وكانت القائمة على تدبير بيته ابنته الوحيدة أجنس التى تقاربنى فى العمر . ووجهها المشرق السعيد هو الصورة الطفلية لامرأة جميلة رأيت صورتها على حائط السلم الكبير فى الدار الساكنة . وهى صورة أمها المتوفاة . وقد حبتنى أجنس بعطف لا أستطيع أن أنساه . أما المدرسة فكانت خيراً من مدرستى الأولى بكثير ولكنى وجدت شيئاً من العناء فى التآلف مع أندادى الجدد بعد الذى كان من صحبتى للغلمان العاملين فى المصنع الحقير . وزاد من كربى أن المعلمين عندما

اختبروا معلوماتى وجدوها شديدة الهزال فأدخلونى فى أدنى صفوف المدرسة . بيد أن الأحوال تحسنت بمرور الأيام وزال تهيبى بعد أسبوعين .

وكان لدى مستر ديكفيلد كاتب يدعى أوريا هيب أحمر الشعر فى الخامسة عشرة يبدو أكبر من سنة بكثير وجهه خال تقريباً من الحواجب والأهداب . وعيناه حمراوان ، عالى الكتفين ، بارز العظام ، يده طويلة أشبه بيد هيكل عظمى يرتدى ثوباً أسود شديد الاحتشام . وكان يكثر من المطالعة ويصبو إلى أن يغدو يوماً ما محامياً ويتفانى فى الإخلاص للمستر ديكفيلد الذى كان يكثر من الشراب فى المساء إلى أن غدا أوريا هيب بالتدريج تام السيطرة على مخدومه . وقد التقيت به بعد ست سنين فى لندن فاذا هو قد أصبح كل شيء فى حياة مستر ديكفيلد وصار شريكه الرسمى فى المكتب . ثم أفزعنى هذا الوضيع حين صارحنى بطموحه إلى الزواج من أجنس التى قال إنه يتدله فى حبها فكدت أقتله ولكنى تمالكت مشاعرى .

وحدث بعد ذلك أن جاء صديقى القديم مستر ميكادوبر إلى كنتربرى فالتقى بى وكان معى أوريا فعرض عليه العمل كاتباً لديه . ثم اكتشف مستر ميكاوبر أن أوريا زوّر توقيع مستر ديكفيلد على عدة وثائق وتلاعب بأموال عملاء كثيرين فى عهدة مستر ديكفيلد من بينهم عمتى وحصل على توقيعه وهو سكران على وثائق تجعله مسئولا عن تبديد الأمانات . ونجح مستر ميكاوبر فى فضح هذه المخازى فكافأته عمتى بتسهيل هجرته إلى استراليا حيث المجال متسع أمام ذوى الفطنة .

ولكن القضـــاء على هيب ورحيل ميكاوبر من أحداث رجولتى . ولابد قبل هذا من استرجاع الأيام التى انقضت بين هاتين المرحلتين ، وهى أيام الدراسة . فقد قضيتها فى الجد والتحصيل ولما انتهيت منها وجدت صديقة طفولتى الرقيقة أجنس قد تحولت من طفلة إلى امرأة ناضجة . وصار علىّ أن أتخذ لى حرفة . فعملت مراسلا صحفياً بعد أن أتى أوريا هيب بألاعيبه على معظم ثروة عمتى . وبدأت أحاول شق طريق لى بسن قلمى بعد أن أجدت الاختزال وأنا فى العشرين من عمرى وصار تسجيل المناقشات فى البرلمان لإحدى الصحف الصباحية مصـــدر رزق محترم لى . وفى الوقت نفسه عكفت على التأليف سراً ونشرت لى إحدى المجلات باكورة إنتاجى فقويت عزيمتى وثابرت على الكتابة .

وذات يوم ذهبت إلى بيت عمتى وكانت مربيتى بيجوتى قد التحقت بخدمتها بعد ترملها وفى صحبتى أجنس التى عزمت على الزواج منها ، وقد صارحتنى أنها أحبتنى منذ وقع نظرها علىّ فى أول يوم وأنها ستكون خير زوج تسعد المؤلف الشاب الناجح .

٣ — نصوص مختارة

• هل سيتضح أنى بطل حياتى أو سيحتل هذه المكانة إنسان آخر ، تلك مسألة ستظهرها حتما هذه الصفحات . وكى أبدأ حياتى من حيث بدأت حياتى أسجل أنى ولدت (على ماقيل لى وعلى ما أعتقد) فى يوم جمعة ، فى الساعة الثانية عشرة ليلا . وقد لوحظ أن الساعة بدأت تدق وأننى شخصياً بدأت أصرخ فى آن واحد .

وبالنظر إلى يوم وساعة مولدى قالت المربية وقالت بعض النساء الحصيفات من أهل الخبرة ممن أبدين اهتماماً متوقداً بشخصى قبل أن يكون فى الإمكان محل للتعارف الشخصى بيننا أننى أولاً شخص قُدر له أن يكون عاثر الجد فى الحياة . وأننى ثانياً سيكون فى مقـــدورى بموهبة خاصة أن أرى الأشباح والأرواح . وهاتان صفتان لا محيص من تلازمهما على حسب اعتقادهن لدى جميع الأطفال الى

المنكودين من الجنسين الذين يولدون فى موهن من ليل يوم الجمعة .

وليست بى حاجة إلى أن أقول شيئاً فى هذا المقام فى صدد المسألة الأولى من هاتين المسألتين إذ ليس ثمت شئ أقدر من تاريخ حياتى هذا على بيان مدى صحة هذه النبوءة أو خطلها على ضوء النتيجة الواقعة . أما بخصوص المسألة الثانية فبحسبي أن أقول إنى لم أحقق شيئاً منها حتى الآن . ولكنى لا أتذمر لحرمانى من هذه الخاصة الغريبة . وإذا كان فى الدنيا أحد قد تمتع بها من دونى فى الوقت الحاضر ، فأنا أرحب من كل قلبى بالاحتفاظ بها لنفسه برمتها .

● هكذا كان الحال بعد ظهر ما أرجو أن تمحضونى العذر فى تسميته ذلك اليوم الحافل الخطير من أيام الجمعة . وليس فى مقدورى إذن أن أزعم أننى كنت أعرف حينئذ حقيقة الحال ، أو أننى أذكر شيئاً مما سيأتى بيانه على أساس ما شهدت به حواسى .

كانت أمى جالسة بجوار النار ، وهى معتلة الصحة سقيمة الروح ، تحدق فى النار من خلال دموعها ، يائسة حسرى على مآلها ومآل ذلك الطارق الصغير الغريب اليتيم الأب الذى سيفد على دنيا لايثير وفوده عليها أدنى اهتمام لديها . أقول إن أمى كانت جالسة قرب النار عصر ذلك اليوم المشرق الشديد الريح من أيام مارس حزينة منطوية على نفسها ، يخامرها الارتياب الشديد فى خروجها حية من التجربة المضنية التى تنتظرها ، وإذا هى حين رفعت عينيها وهى تجففهما إلى النافذة المواجهة لها ترى سيدة غريبة مقبلة عبر الحديقة .

وتطيرت أمى تطيراً شديداً عندما أردفت نظرتها الأولى بنظرة ثانية مخافة أن تكون القادمة هى الآنسة بتسى . وكانت الشمس الغاربة تلقى بوهجها من فوق ...ر الحديقة على السيدة الغريبة التى سارت صوب الباب بقامة متصلبة وسحنة رصينة لا يمكن أن تكون لأحد سواها :

وحينما بلغت الدار أظهرت السيدة دلبلاآخر على هويتها . وكان أبى كثيراً ما ألمع إلى أنها قلما سلكت سلوك البشر الأسوياء . وها هى ذى بدلا من أن ترن الجرس تتقدم إلى النافذة وتطل منها ضاغطة بطرف أنفها على الزجاج بحيث صار أنفها مسطحاً تماماً كما كانت أمى العزيزة تقول لى وصار لونه أبيض تمام البياض فى لحظة واحدة :

لقد أفزعت أمى فزعاً شديداً حتى بت أعتقد اعتقاداً ملازماً أننى مدين للآنسة بتسى بمولدى فى يوم جمعة .

ونهضت أمى لفرط اضطرابها عن مقعدها ولاذت من ورائه بالركن . وراحت الآنسة بتسى تدور بعينيها فى أرجاء الحجرة فى بطء وتفحص ، بادئة بالجانب الآخر مقلبة عينيها كأنها رأس شيطان فى ساعة هولندية إلى أن استقرتا على أمى ، وعندئذ قطبت جبينها وأومأت إليها إيماء من تعودت أن تأمر فتطاع أن تأتى فتفتح لها الباب . وذهبت أمى ففتحت لها . فقالت الآنسة بتسى مشيرة فى الغالب إلى ثياب الحداد التى ترتديها أمى وإلى حالة جسدها :

— مسز دافيد كبرفيلد . فيما أظن .

فقالت أمى بصوت خافت :

— نعم

فقالت الزائرة :

— أنا الآنسة تروتوود . لقد سمعت بها فيما أحسب ؟

فأجابت أمى بأنه كان لها ذلك الحظ . وخالجها إحساس غير سار بأن لهجتها تنم على أن ذلك الحظ ليس مفرط السعادة . فقالت الآنسة بتسى :

— وها أنت الآن ترينها .

فأحنت رأسها ورجتها أن تتفضل بالدخول .

● وكان لدى مستر ميكاوبر بضعة كتب كان يطلق عليها مكتبته ، وهذه الكتب أول ما استغنى عنه من أثاث البيت . كنت أحملها واحداً تلو الآخر إلى كشك لبيع الكتب في طريق المدينة فأبيعها بأي مبلغ يمكن أن أحصل عليه في مقابلها . وكان صاحب كشك الكتب هذا يقطن بيتاً صغيرا خلف الكشك . ومن عادته أن يسكر كل ليلة . ومن عادة زوجته أن تقرعه تقريعاً عنيفاً كل صباح . وحدث أكثر من مرة حينما أذهب إليه في وقت مبكر أن يستقبلني في فراش مقلوب وقد استجد في جبينه جرح دام أو اسودت إحدى عينيه آية على أنه أفرط في الشراب عشية تلك الغداة . وأحسبه كان يجنح إلى العراك والشجار متى شرب ، ويحاول الرجل أن يعثر على الشلنات المطلوبة في أحد جيوب ملابسه الملقاة على الأرض ، في حين لا تكف زوجته التي تحمل طفلا بين ذراعيها عن صب جام سخطها على أم رأسه . وكثيراً ما يتضح أنه أضاع نقوده . وعندئذ يطلب مني أن أعود في وقت آخر . ولكن زوجته كانت تحتفظ دائماً بشيء من النقود . وأحسبها كانت تأخذ نقوده وهو سكران ، وتتم الصفقة معي سراً على السلالم .

● وغدا وجهي مألوفاً لدى حانوت الرهون أيضاً . وكان رئيس المكتب الجالس وراء الحاجز الخشبي يوليني اهتماماً خاصاً . وأذكر أنه كثيراً ما كان يجعلني أصرف اسما أو صفة باللغة اللاتينية أو أصرف أحد أفعال هذه اللغة في أذنه وهو يتمم إجراءات رهن ما حملته إلى الحانوت . وكان من عادة مسز ميكاوبر بعد كل مناسبة من هذه المناسبات أن تقيم وليمة صغيرة ، هي في العادة وليمة عشاء . وكانت هذه الوجبات ذات نكهة خاصة مستطابة لم تزل عالقة بذاكرتي .

● وأخيراً وصلت مصاعب مستر ميكاوبر إلى حد الأزمة . وألقي القبض عليه في ساعة مبكرة ذات صباح ومضوا به إلى السجن في بورو . وقال لي وهو خارج من البيت إن إله النهار قد أعرض عنه . وخيل إليّ حقاً أن قلبه تحطم ، وكذلك قلبي . ولكني سمعت بعد ذلك أنه شوهد يلعب لعبة الصوالج بنشاط شديد قبل ظهر ذلك اليوم .

وفي أول يوم أحد بعد اقتياده إلى هناك كان علي أن أذهب لزيارته وأتناول الغداء معه . وكان لا بد أن أسأل النــاس عن الطريق إلى ذلك المكان فيدلوني مسترشدين بأماكن أخرى وأحواش ومفارق طرق ومنعطفات . إلى أن وصلت أخيرا إلى مقصدي ... فألفيت مستر ميكاوبر في انتظاري وراء البوابة وصعدنا إلى حجرته في الطبقة قبل العليا وبكينا كثيراً . وأذكر أنه راح يناشدني بكل حرارة أن أتعظ بمصــيره . ويذكرني بأن المرء إذا كان دخله في السنة عشرين جنيهاً فأنفق منها تسعة عشر جنيها وتسعة عشر شلناً ونصف شلن فهو إنسان سعيد . أما إذا أنفق عشرين جنيهاً وواحداً فهو لا شك شقي . وبعد ذلك اقترض مني شلناً ليعطيه البواب ، وأعطاني أمراً كتابياً محولا على مسز ميكاوبر بقيمة ذلك المبلغ ، ثم نحى منديله وتهللت أساريره .

● ولست أدري كيف تم بيع أثاث البيت لصالح أفراد الأسرة ، ولا من اشتراه ، فيما عدا أن المشتري لم يكن أنا ! بيع الأثاث وحمله المشترون في عربة نقل . اللهم إلا الفراش وبضعة مقاعد ومنضدة المطبخ . وعسكرنا بهذه المقتنيات في دهليزي البيت الخالي أنا ومسز ميكاوبر والأطفال وظللنا مقيمين هناك ليلا ونهاراً . لست أدري كم من الوقت لبثنا على تلك الحال ولكن يخيل إلي أن ذلك استغرق وقتاً طويلا . وأخيراً قررت مسز ميكاوبر الانتقال للإقامة في السجن حيث حصل مستر ميكاوبر الآن على حجرة خاصة به ، فحملت مفتاح البيت إلى المالك الذي سر سروراً بالغاً بالحصول عليه . وحملت الأسرة إ

السجن فيما عدا سريرى الذى اكتريت له حجرة صغيرة خارج الأسوار بالقرب من موضع سجن المعسرين . وكان ذلك من دواعى احتياطى الشديد لأن الألفة بينى وبين آل ميكاوبر فى أوقات شدتنا كانت لا تسمح لنا بالافتراق .

• وفى يوم الأحد ذاك قطعت على الطريق المستقيمة ثلاثة وعشرين ميلا . ولم يكن قطع هذه الأميال أمراً يسيراً غاية اليسر . لأن ذلك النوع من الجهد كان جديداً على . وإنى لأرى نفسى حينما خيم المساء على وقد وصلت إلى قنطرة روشستر موجع القدمين متعباً آكل الخبز الذى اشتريته لعشائى . ومررت فى طريقى هناك بيت أو بيتين عليهما لافتة مكتوب عليها : « مساكن للمسافرين » فكانت مصدر إغراء لى ولكنى كنت أخشى إنفاق البنسات القليلة التى معى . وأخشى أكثر من هذا تلك النظرات الشريرة التى كان يرمقنى بها السائرون على الطريق ممن التقيت بهم أو تجاوزتهم ، فلم ألتمس لى مأوى غير السماء .

• ولما أصبح الصباح كان ألم قدمىّ شديداً ، وأعضائى متصلبة . وتبينت أنى لا أستطيع المضى فى طريقى ما لم أوفر لنفسى القوت الضرورى فقررت أن أوجه همى الأساسى إلى بيع سترتى . وخلعت السترة لأدرب نفسى أولا على الاستغناء عنها ، وحملتها تحت ذراعى ثم شرعت فى جولة تفتيشية على حوانيت الملابس الرخيصة الجاهزة ، وخيل إلى أنها أنسب الأمكنة لبيع سترتى . ثم وجدت حوانيت لتجارة الملابس المستعملة كثيرة العدد ، وأصحابها وقوف على أبوابها يتسقطون الزبائن . ولكنى لمحت بين الأشياء المعلقة من تلك المعروضات كسوة ضابط أو كسوتين بما عليها من علامات الرتب وما إلى ذلك ، فاستولى على الحياء من نفاسة سلعهم ورحت أتجول هنا وهناك فترة طويلة من غير أن أعرض سلعتى على أحد .

• قالت لى المرأة الشابة :

– هذا بيت الآنسة تروتوود . أما وقد عرفته الآن فهذا كل ما يسعنى أن أقوله لك .

وما أن فرغت من هذه الكلمات حتى أسرعت بدخول البيت كأنها تنفض عنها مسئولية ظهورى ، وتركتنى واقفاً عند بوابة الحديقة أنظر مكروباً من فوق البوابة صوب نافذة حجرة الجلوس حيث انجابت ستارة من الموسلين عن أوسطها فأبصرت منضدة صغيرة ومقعداً كبيراً ...

وكانت نعلى عندئذ فى حالة مخيفة ، فأسفلها قد بلى قطعة قطعة ، وجلدها العلوى تكسر وتفجر بحيث لم يعد لها شئ من الشكل المعهود فى النعال . وكانت قبعتى (التى استخدمتها قلنسوة للنوم أيضاً) قد تكسرت وتلوّت ... وقميصى وسروالى كثرت فيهما اللطخ بفعل الحرارة والندى والعشب وتربة أرض مقاطعة كِنت التى نمت فوقها ، وهما فوق ذلك ممزقان بحيث كان منظرهما كافياً لإخافة العصافير وطردها عن حديقة عمتى وأنا واقف عند البوابة . أما شعرى فلم يعرف مشطاً ولا فرشاة منذ غادرت لندن . ووجهى وعنقى ويدىّ استحال لونها المحرق إلى بنىّ قاتم من فرط التعرض عن غير سابق عهد للهواء والشمس . وكنت مكسواً من قمة رأسى إلى أخمص قدمى بغبار الطباشير الأبيض وبالتراب كأننى خارج لتوى من قمينة للجير . وفى هذه الصورة المزرية ، وفى شعور قوى بها ، وقفت فى انتظار فرصة لتقديم نفسى وترك أول انطباع لى فى عمتى المرهوبة .....

.... ولما رفعت عينى إلى النافذة العلوية رأيت سيداً لطيف المنظر متورد الوجه أشيب اللمة يغلق إحدى عينيه بطريقة فجة ويومئ برأسه إلىّ بضع مرات ثم ضحك واختفى .

وكان الخوف قد اعترانى من قبل بما فيه الكفاية ولكن هذا السلوك غير المنتظر زادمن خوفى وارتباكى حتى أننى أوشكت أن أنصرف مؤثراً لنفسى البعد عن هذا البيت ؛ وإذا سيدة تخرج من باب البناء وقد ربطت منديلها فوق قلنسوتها لابسة فى يديها قفازاً مما يستخدم فى العناية بالحدائق وفى ثوبها جيب كبير كجيوب الجُباة ، حاملة سكينا كبيرة ، فعرفت فيها على الفور الآنسة بتسى لأنها كانت تتخطل فى مشيتها على نحوما وصفتها أمى مراراً كثيرة حين روت لى اجتيازها الحديقة بيتنا يوم مولدى .

وقالت الآنسة بتسى وهى تهز رأسها وتلوح لى عن بعد فى الهواء بسكينها :

— انصرف ! اذهب لحال سبيلك ! لا غلمان هنا !

ورحت أرقبها وقلبى على شفتى وهى تمشى صوب ركن فى حديقتها ؛ ثم وهى تنحنى لتستخرج جذرا صغيرا هناك . وعندئذ — ومن غير شجاعة على الإطلاق ، بل فى يأس بالغ — اختلست الخطى إلى داخل الحديقة ووقفت بجوارها ولمستها باصبعى وقلت :

— من فضلك ياسيدتى .

فأجفلت ورفعت بصرها إلى ، فقلت :

— من فضلك يا عمتى !

فصاحت الآنسة بتسى فى نبرة دهشة لم أسمع أحداً فى حياتى يدانيها :

— إيه ؟

— من فضلك ياعمتى ، أنا ابن ابن أخيك .

فقالت عمتى :

— أوه . يا إلهى !

ثم هوت جالسة على أرض ممشى الحديقة .